الفصل الخامس

آثار الإستعمار على المجتمعات الإسلامية

لم يخرج الإستعمار من البلاد الإسلامية إلا وترك آثاراً بالغة خلفه كان لها أضراراً بالغة في كل المجتمعات الإسلامية، وقد ظلت نتائج وآثار الإستعمار في المجتمعات الإسلامية واضحة ومستمرة ولا تزال هذه الآثار تعاني منها البلاد الإسلامية التي كانت تحت سيطرة الإستعمار الغربي، تعاني كل أقطار العالم الإسلامي في كل من أفريقيا وآسيا وتلك الشعوب التي تسكن جزءاً من أوروبا، لأن الإستعمار في موجة التكالب على الوطن الإسلامي لم يترك دولة من دول العالم الإسلامي إلا وحل بها ما عدا دولتي أفغانستان والجزيرة العربية، وحتى هذه الدول التي لم يتم إستعمارها في القرن الثامن عشر إصابتها بعض الآثار الإستعمارية ومن أوضح آثار الإستعمار التي بقيت في العالم الإسلامي واضحة للعيان حتى يومنا هذا تمزيق وحدة العالم الإسلامي، فقد كان العالم الإسلامي قبل قدوم مؤسسات الإستعمار دولة واحدة يعبر عنها من طنجا غرباً إلى جاكرتا شرقاً، خرج الإستعمار والعالم الإسلامي موزع إلى عدة دول، وفي كل دولة خرج منها الإستعمار ترك مشكلة الحدود ومشكلة الأقليات كل هذا بين الدول المتجاورة، ويمكن للقارئ أن يستعرض خريطة العالم الإسلامي وسوف يرى بوضوح هذه المشاكل التي لا تزال تمثل بؤر الغليان في العالم الإسلامي وكيف أنها قنابل موقوتة منها الذي تفجر ومنها الذي في طور الكمون ويمكن أن يتفجر لأتفه الأسباب، وأصبحت بعض القبائل تضم إلى دولة أخرى بل بعض القبائل تجزأ بين دولتين، وفي كل قطر خلف الإستعمار وراءه مشاكل عملت هذه

المشاكل على أن تخلق جواً من عدم الوفاق بين السكان، وتصنف هذه المشاكل وخاصة مشاكل الحدود مشاكل سياسية ولها آثار سياسية تركها الإستعمار. والإستعمار إلى جانب المشاكل السياسية ترك آثاراً واضحة في مجال التربية والتعليم. ذلك أن سياسات التعليم على عهد الإستعمار بكل أنواعه وأقطاره كانت ترمي أن تؤثر في سلوك الوطنيين وصبغهم بروح الحضارة الغربية والسلوك الغربي، وقد كان فلاسفة التعليم هم المنصرين والمستشرقين الذين كانت تربطهم صلة قوية ووثيقة بدوائر الإستعمار، وخلق المنهج التعليمي على عهد الإستعمار طبقة متمردة على سلوك وأخلاق الشرقيين التي مصدرها الدين الإسلامي وفي الجانب الاقتصادي كانت آثاره واضحة ولاسيما في المعاملات بالربا الذي كان ولا يزال يحرمه الإسلام، ودرج الإستعمار أن يربط اقتصاديات البلدان الإسلامية بمفاهيم الربا وأن تحتل المعاملات الربوية محل المعاملات الإسلامية، ولا تزال هذه الآثار الاقتصادية سائدة في المجتمعات الإسلامية يقوم عليها عملاء خلفهم الإستعمار لمتابعة سياسته وقد ترك الإستعمار آثار واضحة في الزي والذوق العام. وكذلك في العلاقات الإسلامية.

وسوف نقوم بدراسة الآثار التي تركها الإستعمار في القطر السوداني كنموذج للآثار التي تركها الإستعمار في أقطار العالم الإسلامي، إذ أن الكتاب لا يسعه أن يتطرق لكل الأقطار الإسلامية وهذا يحتاج لدراسة منفصلة واختيارنا لجمهورية السودان لأن الإستعمار ترك في السودان مشكلة من أعقد مشاكل العالم الإسلامي واستعصت هذه المشكلة على الحل وأفقدت السودان وأقعدت السودان وبددت إمكانيات السودان البشرية والمادية ولا تزال مستمرة منذ خروج الإستعمار الإنجليزي عام ١٩٥٦م. وهي المشكلة المعروفة في أجهزة الإعلام بمشكلة الجنوب وهي أثر من آثار الإستعمار وسياسة المستعمر لقد دخل كتشنر السودان بعد موقعة كرري الشهيرة عام ١٨٩٨. وقد كرس كل جهده في الأيام الأولى للقضاء ما سمي بآثار التعصب للمهدية. والمهدية هي الدولة التي أقامها المهدي - محمد أحمد المهدي في السودان - فكما كانت الجمعيات التبشيرية المسيحية مهتمة بالسودان بوجه خاص لقد رأت في غردون بطلاً مسيحياً قتل في

سبيل الدفاع عن المسيحية وكانت راغبة في انتشارها في وادي النيل وحتى قلب أفريقيا وأيدت فكرة قيام حائط صيني عظيم من الجمعيات التبشيرية تمتد من رأس الرجاء الصالح حتى القاهرة[١].

احتكرت الكنيسة في جنوب السودان التعليم وقد كان لهذا الاحتكار آثاراً لا تزال هذه الآثار يعاني منها السودان:

١- إسناد التعليم إلى المؤسسات التبشيرية وبهذا حرم أبناء المسلمين من التعليم، إذ تخوف الآباء من تنصير أبنائهم، كما تم طرد بعض أبناء المسلمين من المدارس.

٢- إن القائمين على أمر المؤسسات التبشيرية كانوا في الأساس ألماناً وإيطاليين ونمساويين وكان الأهالي عازفين عن تعليم الإنجليزية وفي عام ١٩١٠م عقد مؤتمر لرؤساء البعثات التبشيرية في الجنوب ناقشوا فيه هذه المشكلة وصرحوا بخشيتهم أن يؤدي تعلم اللغة العربية إلى تعلم وانتشار الدين الإسلامي. وانتهى رأيهم إلى الاقتراح على الإدارة البريطانية بأن يكون التعامل الرسمي للإدارة باللغة الإنجليزية وتوظيف من يتعلمونها، حتى يكون ذلك حافزاً لتعلم الإنجليزية وبذلك بدأ تطبيق السياسة البريطانية فيما يتعلق بفصل الجنوب عن الشمال واستمرت على ذلك حتى الأربعينات[٢].

وقد كان أثر هذه السياسة التعليمية في جنوب السودان واضحاً إذ ظل التعليم في جنوب السودان ينمو على أساس كنسي تبشيري وعلى أساس تعلم اللغة الإنجليزية وأبعاد اللغة العربية وأصبح ولاء المتعلم على الكنائس ولاء غربياً وربما حمل العداء لأبناء وطنه في الشمال يشهد على هذا الحال التي عليها مشكلة جنوب السودان وكيف أن الذين تعلموا في أحضان التنصير كانوا ولا زالوا هم القادة لتوجيه هذه المشكلة (يمكن للقارئ أن يراجع فقرة أهداف التعليم

(١) حسن مكي محمد أحمد، السياسة التعليمية والثقافة العربية في جنوب السودان (الخرطوم: المركز الإسلامي ١٩٨٣م) ص١٧.

(٢) حسن مكي محمد أحمد، المرجع نفسه ص١٩.

التنصيري في السودان) من هذا الكتاب.

كتب الأستاذ محمود شاكر في سلسلة كتب عن مواطن الشعوب الإسلامية كتب كتاباً تحت عنوان السودان نستعرض منه تلخيصاً للآثار التي تركها الإستعمار الإنجليزي في السودان تحت عنوان (السياسة الإستعمارية) وكما تقدم جعلنا السودان نموذجاً للآثار التي تركها المستعمر في البلاد الإسلامية وكما تقدم كذلك تعد الآثار السياسية من أهم وأعقد الآثار التي تركها الإستعمار خلفه في أقطار العالم الإسلامي.

بعد الإستعمار كان الاختلاف واضح بين الشمال السوداني والجنوب. وما كان ليحدث لولا السياسة التي اتبعت والتربية التي قامت في الجنوب خلال أكثر من قرن. لقد وصل المبشرون إلى جنوب السودان عام ١٨٤٨مم وركزوا جهودهم في عدة نقاط:

١- الرق: إذا عمل في هذا النوع من التجارة الجنوبيين والشماليين والأوروبيون ولكن المبشرين جعلوا تبعة كل ذلك على الشماليين ولا تزال هذه المسألة ذات أثر في علاقة الجنوبي بالشمالي في السودان.

٢- سيطرت الإرساليات على المدارس وربت الأجيال على أن الشماليين يريدون السيطرة على الجنوبيين. واتخذت لها (الحكومة) عدة مراحل لتطبيق سياستها من إعادة احتلال السودان ١٨٩٨ حتى ثورة مصر ١٩١٩م، قسمت السودان إلى شمال وجنوب بحجة أن الجنوب في حاجة إلى المزيد من المال لتطويره، أعطت إنجلترا حرية تامة للمبشرين بغية تنصير السكان من الثورة المصرية ١٩١٩م - ١٩٤٦م إذ خافت إنجلترا من انتقال الثورة إلى السودان ولذا فصلت الجنوب عن الشمال، وفي عام ١٩٢٢م صدر قانون الجوازات ونص على أن المسلمين لا يحق لهم دخول الجنوب إلا بتصريح وأطلق أمر المبشرين، ومن ثم عملت إنجلترا على محاربة ومحو اللغة العربية وشجعت استعمال الألفاظ المحلية وحاولت محاربة صنع الملابس العربية من سنة ١٩٤٦م - ١٩٥٦م رأت إنجلترا والسياسة الإستعمارية بوجه عام تسليم البلدان لأهلها حتى توفر تكاليف الإدارة.

خرجت إنجلترا من السودان وتركت فيه جرحاً نازفاً كان ولا يزال. كان لإنجلترا الأثر الكبير في خلق مشكلة جنوب السودان وترك جراح عميقة بين الشمال والجنوب لا يمكن علاجها بسهولة[١].

ولا تزال المداولات مستمرة لحل مشكلة جنوب السودان كأثر من الآثار التي تركها الإستعمار الإنجليزي في السودان وقد ترك المستعمرون مشاكل مماثلة لمشكلة السودان في معظم أن لم يكن كل أقطار العالم الإسلامي ظلت ولا تزال تمثل بؤر النزاع والاختلاف في العالم الإسلامي وسبباً من أسباب تمزيق وحدته.

هذه دراسة عن آثار الإستعمار القديم ونذر آثار الحديث التي بدأت واضحة للعيان وهي أخطر من آثار الإستعمار القديم وقد بدأت في محاولة استئصال الحضارة الإسلامية وصراعاً حضارياً ضد الإسلام والمسلمين وهي آثار تحتاج لدراسة حتى يوضح للقارئ ما هي هذه الآثار ونأمل أن تتاح لنا فرصة للكتابة حولها

(١) محمود شاكر، السودان مواطن الشعوب الإسلامية في أفريقيا، بدون طبعة (بيروت: منشورات العصر الحديث ١٩٧٢م) ص٧٧-٨٨